مفردات الألبسة في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي

– دراسة في الدلالات والأبعاد-

أ فاطمة جابري
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي (الجزائر)
أ.د: بلقاسم مالكية.
المدرسة العليا للأساتذة ورقلة (الجزائر)

الملخص:

نقدم في هذا المقال رؤية دلالية سيميائية لمفردات الألبسة في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي. و قمنا بهذه الدراسة رغبة منا في التنويه بأهمية الملابس في الدراسات اللغوية البحثية التي لم تولها عناية كبيرة، وتعالج هذه الدراسة جملة من الألبسة، معتمدين في ذلك المنهج الألفبائي مستفيدين من علم الدلالة لاكتشاف المعنى، و علم السيمياء للتحليل و التفكيك و الولوج إلى خبايا النص.

Summary

In the present article we are introducing a semiotic and semantic vision of the lexicon of cloths in Memory of the body by Ahlam Mosteghanmi.

We carried out the present study with the aim to emphasize the importance of clothes in the linguistic studies which attach a lot importance to the clothes.

The study is dealing with a series clothes for which we have chosen the alphabetic way relying on semantics so as o discover the meaning and sociology to analyze to decode and enter inside the secrets of the text.

تمهيد:

مما أصبح يبدو لنا جليا أن لدراسة الملابس أهمية كبيرة في الصناعة المعجمية في الصناعة المعجمية فهي تسلط الضوء على الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و التاريخية للشعوب و الأمم و ترتبط الملابس بالمتعة، و الحضارة و الذوق الفني الجميل و من المجاز: فيه مَلْبَسٌ: مُسْتَمْتَعٌ، قال امرئ القيس (من الطويل).

أَلَا إنَّ بَعدَ العُدْمِ للمَرءِ قِنْيَةً وبعد المشِيبِ طُولَ عُمرٍ و مَلْبَسَا[(1)]

كما تكشف دراسة الملابس عن مدى ما وصلت إليه الشعوب من رقي في مضمار الصناعة التي تعد ركنًا هامًا من أركان الحضارة لأية أمة من الأمم [(2)] كما أن التعامل مع أي نص شفهيا كان أم مكتوبًا، بكرًا في قراءته أم متعدد التلقي، لا يشبه إلا التعامل مع ألغامْ زرعت في أراضي صحراوية كلما حاولت رياح شمالية أن تكشفها نسجتها رياح أخرى جنوبية [(3)] وفي هذا السياق ستشمل دراستنا رؤية دلالية سيميائية في مفردات الألبسة في ذاكرة الجسد لـــأحلام مستغانمي.

و مما لا شك فيه أن تخطي عتبة الإحساس الدنيا، يظهر بعناية كمركب حِسِّيّ و عاطفي يتفتح على عالم سيميائي آخر، تتهيأ فيه جميع خصائص العالم الحسي، و تنتظم دلالتها. وفق نظام آخر غير زمني و خيالي و ساحر[(4)] والسؤال الذي انبثق من التراكم المعرفي ما علاقة السيمياء بالمعجمية؟ و هل يمكن أن يلتقي المعنى الدلالي بالإحالة السيميائية؟ و رحنا نتساءل عن مدى اسهام هذا العلم في بلورة مفاهيم ثقافية تظهر في هيئة رموز؟ و من خلال حصرنا لمفردات الألبسة في رواية ذاكرة الجسد، ما الإنطباع المباشر لها على السلوك؟ و هل يمكن أن تكون أكثر تأثيرًا من أي وصف آخر؟

وقمنا بهذه الدراسة رغبة من في التنويه بأهمية الملابس في الدراسات اللغوية البحثية التي لم تولها اهتمامًا كبيرًا في محاولة لحصر ألفاظ الملابس حصرًا شاملا والكشف عن معنى كل لفظة و بيان تأويلها السيميائي في ذاكرة الجسد لكن المجال لا يتسع لذكرها جميعًا فاخترنا مجموعة منها على سبيل المثال لا الحصر.

و كان من أبرز دوافع اختيارنا لهذا الموضوع :

ضرورة انفتاح السيمياء على روافد معرفية أخرى حتى تتجاوز حالة الانسداد المعرفي الذي وصلت إليه حين حصرت همها في مقاربة الخطاب من وجهة نظر المحايثة.

التقاء علم السيمياء مع العلوم الأخرى: المعجمية، الدلالة، السرد، و هو ضروري لتكاملها.

التعرف على أسماء الألبسة المذكورة في رواية ذاكرة الجسد و احالتها الى رمز موروثي؟

انتهجنا في دراسة هذا البحث المنهج الوصفي و الاحصائي حيث قمنا بجمع أسماء الألبسة في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي مستفيدين من المعجمية و علم الدلالة و السيمياء و هو بدوره يشتمل على مسائل:

السيميائيات السردية: التي تسعى الى اكتشافالمعنى و سيرورته ، في سياق أوسع من سياق التواصل المنحصر في المرسل و الرسالة و المرسل اليه، إذ الأمر يتعلق بلغة اللغة حيث يتحول عالم المعنى الذي تجعله السيمياء موضوع تحليلها إلى لغة قابلة للتفكيك[5].

فإن هذا التأويل سيكون مزدوجًا

فتطبيق نظرية ما على نص ما. لا يخلو من تأويل أولي يمتد لعناصر هذه النظرية نفسها، و ذلك وفق التصور الذي يملكهُ الشخص المؤول عن الحياة و عن الانسان.

ويأتي التأويل الثاني كقراءة للمنهج و للنص على حد سواء. فأي ممارسة تطبيقية لنظرية ما، هي تأويل لها بشكل ضمني أو صريح[6].

الصيغة الرمزية:

فالرمز في الأصل هو أداة التعرُّف التي يمكِّن منها وجه قطعة نقدية، فنحن نتوفر على نصفي شيء ما في كلّ مرّة يقوم فيها أحدهما مقام الآخر، إلا أن وجه القطعة النقدية وقفاها لا يحققان كامل وظيفتها إلاّ عندما يلتئمان لتكوين وحدة من جديد، و في جدلية الدال و المدلول التي تميز العلامة فإن هذا الالتئام يبدو غير مكتمل أو مؤجّلًا فكلما أوّلنا مدلولاً اكتشفنا شيئا اضافيًا. فعوض أن تتركب الإحالة من جديد، تبتعد أكثر و تتحيد أكثر[7] فالرمز ممثل يكمن طابعهُ التمثيلي في قاعدة تحدد مؤوله[8].

مفردات الألبسة في ذاكرة الجسد: و في هذا السياق اخترنا مجموعة من الألبسة على سبيل المثال لا الحصر، معتمدين في ذلك على المنهج الألفبائي مستفيدين من علم الدلالة، لاكتشاف المعنى، وعلم السيمياء للتحليل و التفكيك للولوج إلى خبايا النص .

المعجم:

البرنس:

لغويا: من المعان ذات الصلة بهذا اللباس ما جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "برنس" البرنس: كل ثوب رأْسه منه مُلْتَزِقٌ به، دُرَّاعَةً كان أو مِمْطَرًا أو جُبَّةً. و في حديث عمر، رضي الله عنه: سقط البُرْنُسُ عن رأْسي، هو من ذلك. الجوهري: البُرْنُسُ قَلَنْسُوة طويلة، وكان النُّسَّاكُ يلبسونها في صدر الإِسلام، وقد تَبَرْنَسَ الرجل إِذا لبسه، قال: و هو من البِرْس، بكسر الباء، القطن، و النون زائدة، و قيل: إنه غير عربي.[9]

أما في المعجم العربي لأسماء الملابس لجواد ابراهيم في مادة "برنس" البرنس: كلمة يونانية معربة، أصلها في اليونانية Birros وعرفتها الفرنسية من العربية، وهي في الفرنسية Burnous و هي تعني: رداء أو ثوب رأسه ملتصق به، أو رداء رأسه منه، معطف طفل، ثوب طويل بقلنسوة أو غطاء للرأس و العنق.

و البرنس في العربية يعني: قلنسوة طويلة كان الناس يلبسونها في صدر الاسلام، أو هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو جبة أو ممطراً.([10])

البُرْنُس: لباس عربي يلبسه الناس في صدر الاسلام، و هو ثوب طويل بقلنسوة.

سيميائيا: جاء في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي « لم يعد يُميّزها شيء. حتَّى تلك الهيبة التي كانت سمة أهل قسنطينة، و ذلك الشاش و البرنس المتألِّق بياضًا، أصبح نادرًا و باهتًا اليوم».([11])

البرنس هنا يحمل البعد التاريخي والحضاري والعقائدي والوطني والايديولوجي والثقافي والاجتماعي للهوية الوطنية بكل أبعادها فله أصول ثقافية وتاريخية. تعكس ماضي الأجداد العريق والعتيق فهو رمز للعروبة عرفه أباءنا وأجدادنا قديما، ولا يزال يرتديه العديد من الأفراد إلى اليوم.

وأن الحفاظ عليه وصيانته والتكفل به هو في حقيقة الأمر حفاظ على الهوية الجزائرية، وصيانتها والتكفل بها خوفا عليها من التمزق والتشوه والاندثار.

أي أن قسنطينة فقدت معاليمها: عاداتها و تقاليدها و عروبتها، فالشاش و البرنس رمز للعروبة.

الثوب:

لغويا: جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "ثوب" و الثوب اللِّبَاسُ، واحد الأَثْوابِ، و الثِّيابِ، و الجمع أَثْوُبٌ، وبعض العرب يهمزه فيقول أثؤب، لاستثقال الضمة على الواو و الهمزة أقوى على احتمالها منها، و كذلك دار و أدؤر و ساق و أسؤق ، و جميع ما جاء على هذا المثال. قال معروف بن عبد الرحمن:

لكل دهر قد لبست أثْؤبا،

حتى اكْتَسَى الرأسُ قِناعًا أَشْيَبا،

أَمْلحٌ لاَ لَذًّا، ولاَ مُحَبَّبَا

وأَثْوَابْ وثِيَابٌ...ويقال لصاحب الثِّياب: ثوَّابٌ. وقوله عز وجل «وثيابك فطهر». قال ابن عباس رضي الله عنهما، يقول: لا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ على مَعْصِيَةٍ ولا على فُجُورْ كُفُرْ، واحتج بقول الشاعر: (الطويل) (ش 347/4)

إِني بَحْمِدِ الله، لا ثَوْبَ غادِرٍ لَبِسْتُ، ولا مِنْ خَزْيَةٍ أَتَقَنَّعْ.

وقال أبو العباس: الثِّيَابُ اللِّبَاسُ، و يقَالُ للقَلْب. وقال الفرَّاءُ: وثِيَابَك فَطَهِّرْ: أي لا تكن غَادِرًا فتُدَنِّسْ ثِيَابَكَ، فإِنَّ الغادِرْ دَنِسُ الثِّياب، ويقال: وثِيَابَك فَطَهِّرْ. يقول: عَمَلَكَ فَأَصْلِحْ ...([12])

أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة "ثوب" ... يقال أَطْوَعُ مِنْ ثواب قال و الثوب الملبوس محتملٌ أن يكون من هذا القياس، لأنّه يُلْبَس ثم يلبس و يثاب إليه. و رُبَّمَا عَبَّرُوا عن النفس بالثَّوب، فيقال هو طاهر الثياب([13]).

أما في معجم أساس البلاغة للزمخشريفي مادة "ثوب". وفلان نقيّ الثّوبِ بريّ من العيب و عكس دنس الثياب...و تعلق بثياب الله أي بأستار الكعبة ([14]). و يعني الثوب اللباس،وربما يدل على حال النفس البشرية فيعبر عن الطهارة و الستر أو عن الدنس، والغدر...

سيميائيا: و ذكرت أحلام مستغانمي لفظة الثياب في العديد من الصفحات نذكر منها:

«ها أنا معه و دونه ...أمام بقاياه، ثياب...ثياب...أغلفة خارجية لكتاب بشري، واجهة قماشية لمسكن من زجاج...انكسر المسكن وظلت الواجهة، ذاكرة مثنية في حقيبة، فلماذا ترك لي الواجهة؟»([15])

«كانت كلّ الطرق تؤدّي إليك، حتّى تلك التي سلكتها للنسيان، و التي كنت تتربّصين لي فيها كلّ المدارس و الكتاتيب العتيقة...كلّ المآذن...كلّ البيوت المغلقة..كلّ السجون...كلّ المقاهي...كل الحمّامات التي تخرج منها النساء ...كلّ الواجهات التي تعرض الصبغة و الثياب الجاهزة للعرائس»[16].

نفهم من خلال ما سبق أن الثياب الأنيقة تخفي تحتها وجعًا وماضي مرير، و الثياب البيضاء الطفولية التي تجف فوق كانون رمز للعديد من الشهداء بملابس بيضاء تقتل بنار باردة، إما من طرف المستعمر الفرنسي أو على يد الإسرائليين أو على يد الجزائريين أنفسهم.

الجاكت:

لغويا: جاء في المعجم العربي لأسماء الملابس لرجب عبد الجواد إبراهيم الجاكت: كلمة انجليزية دخلت العربية حديثًا، وأصلها في الانجليزيةJaket و هي تعني الجزء العلوي من الحلة للرجال، أو السترة و يرادفها في العربية الصدار، أو السترة أما الجاكتة فاستعملت مؤنثة للجاكت و قد وضع المجمع العلمي العربي بدمشق لها: الرداء، ووضع لها العلامة أحمد تيمور: الجُمَّارة، المخصص: الجَمَّارة دراعة قصيرة من صوف[17].

الجاكت وهي مؤنثة و تعني رداء يرتديه الرجال.

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد:

« ووجدتني أقول لتلك الفتاة، و كأنني أواصل جملة بدأتها أنت:

الفن هو كلّ ما يهزّنا...و ليس بالضرورة كل ما نفهمه! نظرتما إليّ معًا بشيء من الدهشة، و قبل أن تقولي شيئًا، كانت عيناك تكتشفان في نظرة خاطفة، ذراع جاكيتي الفارغة و المختبئ كمَّه بحياء في جيب سترتي »[18]

« وإذا بالموت و الحياة يهجمان عليّ معًا، و أنا أرى ثيابه أمامي، ألمس كنزته الصوفية الرمادية، وجاكيته الجلدي الأسود الذي تعوّدت أنا أراه به..

..ولكن هذه هي المرّة الأولى التي يترك أشياءه مجموعة في حقيبة مرتّبة بعناية و كأنّه أعدّها لنفسه وجمع فيها كل ما يحب استعدادًا لسفر ما. كأنه أراد أن يأخذها معه حيث سيذهب، وحيث كان يريد أن يرتدي جاكيته الأسود المفضل..ويستمع إلى موسيقى تيودوركيس» [19]

و لا يخفى على كل باحث أن هذا الشاعر عندما ترك جاكيته الأسود المفضّل ليقول للعالم أنه ليس خائفا من الموت و إنما هو على أتم الاستعداد له بل و بفضله يعرف مسبقا أنه ذاهب إليه فاللون الأسود تنبعث منه رائحة الموت فهو رمز للحداد.

حزام الذهب:

لغويا: جاء في معجم أساس البلاغة للزمخشري في مادة "حزم" وآخُذُ حِزَامّ الطريق أي وسطه ومحجته.

وتعني لفظة حزام الطريق وسطه. ومحجته [20]

سيميائيًا: جاء في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي « وحزام الذهب هو مطلع دهشتي هو الصدر و هو العجز في كل ما قيل من شعر عربيّ »[21]

حزام الذهب هو حزام الأمان الذي يطوق قسنطينة من كل سائح أو فاتح و يقصد به الغابات و الجوف و الممرات السرية.

ربطة العنق:

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد: « لم يتغير زياد ...ما زال شعره مرتّبًا بفوضوية مهذَّبة، و قميصه المتمرّد الذي لم يتعود يوما على ربطة عنق، مفتوحا دائما بزرٍّ أو زرّين. وصوته المميز دفئًا وحزنًا يوهمك أنَّه يقرأ شعرًا، حتى عندما يقول أشياء عاديَّة، فيبدو و كأنَّه شاعر أضاع طريقه و أنَّه يوجد خطأ حيث هو»[22].

يتضح من خلال قميصه المتمرد الذي لم يتعود على ربطة عنق ، تمرده على العدوان الصهيوني.

السوار:

لغويا: من المعان ذات الصلة بهذه المفردة ما جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "سور": سِوَارُ المرأَة، و الجمع أَسْوِرَة وأَساوِرُ، الأَخيرة جمع الجمع، و الكثير سُوْرُ و سُؤُورٌ، الأخيرة عن ابن جني، ووجهها سيبويه على الضرورة ، والإِسْوَار: كالسِّوَار، والجمع أساوِرَةٌ.

وقال المَرَّارُ بنُ سَعيد الفَقْعَسيُّ:(الطويل)(ش333/1)

كما لاحَ تِبْرٌ فِي يَدٍ لمَعَتْ به كَعَابٌ، بَدَا إِسْوَارُهَا وخَضِيبُهَا

وقرئ: فلولا أُلْقِيَ عليه أساوِرَة من ذهب. قال و قد يكون جمع أساوِرَ. وقال عز وجل: يُحَلَّوْنَ فيها من أَسَاوِرَ من ذهب، وقَالَ أَبُو عَمْرُو بنُ العلاء: واحدها إِسْوَارَ.

و سَوَّرْتَهُ أي أَلْبَسْتُهُ السِّوَارَ فَتَسَوَّر. وفي الحديث: أَتُحِبِّينَ أن يُسَوِّرَكَ الله بسوارين من نار؟ السِّوَارْ من الحُلِيّ: معروف والمُسَوَّرْ: موضع السِّوَارُ كالمَخَدَّمَ لموضع الخدمة التهذيب: وأما قول الله تعالى أسَاوِر من ذَهَبٍ، فإن أَبا إسحاق الزجاج قال: الأساوِر من فضة، و قال أيضًا: فلولا أُلْقِيَ عليه أَسْوِرَةٌ من ذَهَبٍ، قال: الأَسَاوِرَ جمع أَسْوِرَة و أَسْوِرَةٌ جَمَع سِوَارٌ، وهو سِوَارٌ المرأَة و سُوَارُهَا. قال: والقَلْبُ من الفضة يسمى سِوَارًا وإن كان من الذهب فهو أيضا سِوارٌ، و كلاهما لباس أهل الجنة، أحلنا الله فيها برحمته[23].

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة « الجسد وقبل أن تصلني كلماتك... كان نظري تَوَقَّفَ عند ذلك السوار الذي يزّين معصمك...

مددت يدي إليك دون أن أرفع عيني تمامًا عنه و في عمر اللحظة، عادت ذاكرتي عمرًا إلى الوراء إلى معصم (أمًّا) الذي لم يفارقه هذا السوار قطّ.

وداهمني شعور غامض، منذ متى لم يستوقف نظري سوار كهذا؟

لم أعد أذكر ..رُبَّمَا منذ أكثر من ثلاثين سنة ...تقاطعت نظراتنا في نصف نظرة.

كنت تتأملين ذراعي الناقصة، و أتَأَمّل سوارًا بيدك.

كان كلانا يحمل ذاكرته فوقه

آه واشك ..أيتها الصغيرة التي كبرت في غفلة مِنِّي..كيف أنت أَيَّتُها الزائرة الغريبة التي لم تعد تعرفني. يا طفلة تلبس ذاكرتي، و تحمل في معصمها سوارًا كَانَ لأميّ؟

دعيني أضمّ كلّ من أحببتهم فيك. أتأمّلك و أستعيد ملامح (سي الطاهر) في ابتسامتك و لون عينيك، فما أجمل

أن يعود الشهداء هكذا في طلتك. ما أجمل أن تعود أمي في سوار بمعصمك ، و يعود الوطن اليوم في مقدمك وما أجمل أن تكوني أنت ..هي أنت أــدرين.

Lإذا صادف الانسان شيء جميل مفرط في الجمال ..رغب في البكاء .

نفهم من هذا أن السوار يوقظ ذاكرته عمرا إلى الوراء و يذكره بالوطن فهو بمثابة الجرس الذي يوقظ الذاكرة إلى جهاز العروس و الذي لا تخلو منه امرأة منم الشرق الجزائري.

دَخَلَت في طَلَّتك...في مشيتك.. في لهجتك.. و في سوار كنت تلبسينه» [24].

السوار ربطته الكاتبة بالأمومة التي تتجسد في الوطن فجرس السوار يوقظ الذاكرة إلى الوطن فهو رمز للذاكرة الخاصة والعامة.

الشال: يقول رجب عبد الجواد ابراهيم في المعجم العربي لأسماء الملابس في مادة "شال"، الشَّال كلمة فارسية معرَّبة، وأصلها في الفارسية، شال: و معناه في الفارسية: حزام صوفي و قد انتقل إلى العربية و صار يعني رداء يوضع على الكتفين يتخذ من الصوف أو القطن، أو مطرف يُنسج من الوبر...

و الشال لدى بدو الجزيرة العربية طرحة من الحرير الأسود، تبلغ مساحتها مترين مربعين، تضعها المرأة البدوية على رأسها عند الخروج، و هذه الطرح كانت تصنع في دمشق(25).

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد: « تفاجئني تسريحتك الجديدة شعرك القصير الذي كان شالاً يلفّوحشية ليلى، ماذا تراك فعلت به؟ »(26).

« كان شعرك الطويل الحالك، ينفرط فجأة على كتفيك شَالاً غَجَرِيًّا أسود، و يوقظ رغبة قديمة لإمساكك منه، بشراسة العشق الممنوع »(27).

العجار:

لغويا: من المعان ذات الصلة بهذا اللباس ما جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "عجر" و العِجارُ ثوب تَلُفُّهُ المرأة على استدارة رأْسها ثم تَجَلْبَبَ فوقه بجِلبَابَهَا، والجمع المَعَاجُر، ومنه أُخذ الاعْتِجَارُ، وهو لَيُّ الثوب على الرأْس من غير إِداة تحت الحنَك. وفي بعض العبارات: الاعْتِجَارُ لَفُّ العمامة دون التَّلَحِّي. وروي عن النبي، صلى الله عليه و سلم، أَنَّهُ دخل مكة يوم الفتح مُعْتَجِرًا بعمامةٍ سوداء،المعنى أنه لفَّهَا على رأْسه و لم يتَلَحَّي بها(28).

أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة "عجر" و من الباب الاعتجار و هو لف العمامة على الرأس من غير إدارةٍ تحت الحنك. قال:

جاءت به معتجرًا ببُرْدِهِ   سَفْوَاء تَرْدِي بِنَسِيج وَحْدِهْ

و إنما سُمِّيَ اعْتِجَارًا لما فيه من لَيٍّ ونُتُو(29).

و في معجم أساس البلاغة للزمخشري في مادة "عجر" وخرجن معتجراتٍ أي مختمراتٍ بالمعاجِرِ. و هو حَسَنُالمُعْتَجَر وهو الاعتمام(30). وفي المعجم العربي لأسماء الملابس لرجب عبد الجواد ابراهيم في مادة "عجر" والعِجار: بكسر العين هو المِعجَر. وقيل: ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء و أكبر من المقنعة، و قيل المعجر و المعاجر: ضرب من ثياب اليمن(31).

سيميائيا: و تعبر عنه أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد بالثالوث و ذلك بقولها « الرغبة و ذلك بقولها الرغبة التي تعطي نساءها تلك المشية القسنطينية المنفردة، و تمنح عيونهنّ تحت (العجار) ذلك البريق النادر»(32)

العجار هو مثلث و لذلك فهو يرمز للثالوث المستحيل وهو الدين السياسة الجنس.

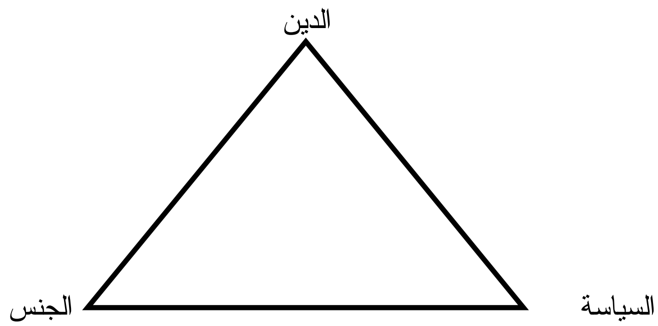

القميص: من المعان ذات الصلة بهذا اللباس ما جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "قمص"، القميص الذي يلبس معروف مذكر، و قد يُعْنَى به الدرع فيؤنث، وأَنثه جرير حين أَراد به الدرع فقال: الكامل ش406/3

تَدْعُو هوزانَ والقميصُ مفاضةٌ، تَحْتَ النّطاق، تُشَدُّ بالأَزرار

والجمع أَقْمِصَة وقُمُصٌ وقمصان. وقمص الثوب قَطَع منه قميصًا، عن اللحياني. وتَقَمَّصَ قميصَه: لَبسه، وإنه لَحَسَن القِمْصَة، عن اللحياني. ويقال: قَمَّصْتُهُتقميصًا أي ألبسته فَتَقَمَّصَ أي لَبَسَ. وروى ابن الأعرابي عن عثمان أن النبي، صلى الله عليه و سلم، قال له: إن الله سيُقَمِّصُكَ قميصًا وإنك سَتُلَاصُ على خَلْعِهِ فإيَّاك وخلْعه، قال: أَراد بالقميص الخلافة في هذا الحديث وهو من أَحسن الاستعارات...والقميص: غلاف القلب. قال ابن سيده: وقَمِيصُ القلب شحمه أراه على التشبيه[33].

أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة "قمص"، القاف و الميم و الصاد أصلان: أحدهما يدل على لبس شيء و الانشيام فيه و الآخر على نزو الشيء و حركة

فالأول القَميص للإنسان معروف. يقال: تَقَمَّصه، إذا لَبِسه. ثم يُستعار ذلك في كلّ شيء دخل فيه الإنسان، فيقال: تَقَمَّص الإمارة، و تَقَمَّصَ الولاية. وجمع القميص أقمصةٌ، و قُمُص[34].

أما في معجم أساس البلاغة للزمخشري في مادة "قمص"، قمَّصَه ثوبًا فتَقَّمصه، و قمص هذا الثوب: اقطع منه قميصا...وتَقَمَّصَ لباس العزّ[35].

و يقول رجب عبد الجواد ابراهيم في المعجم العربي لأسماء الملابس في مادة "قمص"، القميص بفتح القاف ثوب مخيط بكمين يلبس تحت الثياب، و لا يكون إلا من قطن أو كتان أو صوف و القميص، الدِّرع و الجمع، أقمصة وقُمُصٌ وقُمْصَان ولفظ القميص هذا تسرّب إلى العربية في عصرين مختلفين و عن طريق شعبين قريبين، فلفظ: قميص قديم في العربية وورد في القرآن الكريم، و كان قد دخلها عن طريق اتصال العرب بالرومان في بلاد الشام، و أصل اللفظ:camisia وفي الايطالية الحديثة:camicia وفي الفرنسية chemiseوعن الفرنسية استعارته الانجليزية فقصرته على ثوب السيدة.

أما العصر الثاني الذي دخل فيه هذا اللفظ لغتنا فهو العصر الحديث، و هذه المرة ليست عن طريق الشعب الروماني بل عن طريق الفرنسيين فهو إذن لاتيني مُعَرَّب.

و لكنArtherJeffery يرى أن الكلمة يونانية مأخوذة من الهند وأوربية، ثم انتقلت من اليونانية إلى السريانية و الحبشية بمعنى، مقوى، أو حافظ البدن...[36]

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد « بين الثياب قميص حريريّ سماويّ اللّون، مازال في غلافه اللّامع الشفّاف .. لم يفتح بعد، أستنتج دون جهد أنّه هديّة منكِ»[37].

« ولم يمت بلال حسين كغيره، قضى سنين في السجن و التعذيب.

ترك فيهما جلده على آلات التعذيب.

أذكر أنّه ظلّ لعدّة أيام عاري الصدر، عاجزًا حتى أن يضع قميصا على جلده، حتّى لا يلتصق بجراحه المفتوحة ، بعدما رفض طبيب المستشفى تحمّل مسؤولية علاجه»[38].

يعطي صورة عامة عن الحظارة في قسنطينة، ويرمز القميص الحريري السماوي الذي ما زال في غلافه اللامع الشفاف للصفاء و الطهارة بكل شفافيتها لامعة براقة للأنظار و للعالم بأسره.

المعطف: جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "عطف" ، و كذلك المِعْطَفُ وهو مثل مئْزر وإزار ومِلْحَف و لِحاف ومِسْرَدْ وسِرَادٍ، وكذلك مِعْطَفُ وعِطَافٌ، وقِيلَ: المَعَاطِفُ الأَرْدِيَةُ لا واحد لها، واعْتَطَفَ بها وتَعَطَّف: ارْتدى. وسمي الرِّدَاء عِطَافًا لوقُوعه على عِطْفَي الرّجل، و هما ناحيتا عنقه[39].

أما في معجم أساس البلاغة للزمخشري في مادة "عطف" و تعطّف بالعِطاف والمِعْطَف واعْتَطف[40].

سيميائيا: و تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد «ما زلت أذكر تلك الشهقة في نظرتها، كأنَّها كانت تنتظر شخصًا آخر غيري. توقفت مدهوشة أمامي، تفحّصت معطفيّ الحزين ووجهي النحيل الشاحب. توقَّفت عند ذراعي الوحيدة التي تمسك علبة الحلوى، و ذراع معطفي الأخرى الفارغة التي تختبئ لأوّل مرّة بحياء داخل جيب معطفي»[41].

« ستعودين لي.. يا معطفي الشتويّ.. يا طمأنينة العمر المتعب... »[42]

« كنت معطفا لغيري و بردًا لي »[43]

والجدير بالاهتمام أن المعطف الرمادي رمز للحزن و الكآبة و المعطف الشتويّ رمز للجسد البارد من العطف و الحنان من طرف أم تذعى قسنطينة التي كانت معطفا لغيره في فصل الشتاء و بردا له هو الذي يخفي بحياء ذراع معطفه الفارغة داخل جيبه، و التي فقدها لأجل الوطن.

الملاءة:

لغويا: من المعان ذات الصلة بهذا اللباس ما جاء في المعجم العربي لأسماء الألبسة المُلَاءَة: بالضم و المدّ: الرَّيطة،وهي الملحفة، و الجمع مُلاء، و في حديث الاستسقاء: فرأيت السحاب يتمزق كأنه المُلاء حين تُطوى والمُلاء بالضم و المد: جمع مُلاءة و هي الإزار و الريطة.

شبه تفرّق الغيم و اجتماع بعضه إلى بعض في أطراف السماء بالإزار إذا جُمعت أطرافه و طُوِي، و منه حديث قيْلة وعليه أسمال مُلَيَّتَين هو تصغير مُلاءة مُثنَّاة المخففة الهمز و منه قول أبي خِراش:

كأنَّ المَلَاء المَحْض خَلْف ذِرَاعِه صُرَاحِيَّةٌ والآخنِيُّالمُتَّحَمُ.

عنى بالمحض هنا الغبار الخالص، شبهه بالملاء من الثياب. و زاد في التاج: الملاءة و الريطة مترادفتان، و قيل ، الملاءة هي الملحفة ذات اللفقين، فإن لم تكن ذات لفقين هي ريطة و أهل الأندلس كانوا يقولون لبعض أردية الحرير ملاءة، و إنما المُلاءة الملحفة، قال الأصمعي: الريطة كل ملاءة لم تكن لفقين ، و قال ابن قتيبة: إذا كانت الملاءة واحدة فهي ريطة، و إذا كانت نِصْفًا فهي شقّة، والعامة تستعمل الشقة مكان المِلحَفة.

وعند دوزي: وقديمًا كان هذا النوع من المعاطف لا يلبسه إلا الرجال، ففي الأغاني لأبي الفرج أن المغنية الشهيرة عزه الميلاء، على رأي بعضهم، لأنها كانت تلبس الملاء و تتشبه بالرجال.

و عند Laneفي كتابه : المصريون المحدثون: إن هذا الثوب نوع من المعطف الأزرق و الأبيض، و يدعى ملاية، و يلبس هذه الملاية كذلك بعض الرجال، و أغلب النساء، و يتشح بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن، و هم يغطون الذراع اليسرى بإحدى الزوايا، و يطرحون الثوب إلى الوراء، و يجعلونه يمر تحت الذراع اليمنى ثم فوق الصدر و على الجسم و يرمي سائره على الذراع اليسرى، بحيث يجعلونه يتدلى على الظهر، و الذراع اليمنى تبقى مكشوفة بغية استعمالها بحرية.

أما ملاية المرأة فهي نوع من المعاطف يشبه من ناحية الشكل الحبرة، و يتألف من شقتي قطن منسوجتين تربيعات زرقاء وبيضاء، أو على هيئة خطوط مائلة منحرفة، مشوبة باللون الأحمر، تستر بها النِّسَاء الجسم كله

الملاءة: هي لباس يتشح به الرجال فوق الكتفين أو حول البدن و تسمى الملاية.

أما بالنسبة للمرأة فهي ثوب تغطي به المرأة كامل جسمها يتألف من شقتي قطن منسوجتين[44].

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد«تمتد أمامي غابات الغار والبلُّوط، وتزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة، وكلُّ تلك الأدغال، و الجروف و الممرات السّريّة التي كنت يومًا أعرفها والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان، فتوصلك مسالكها المتشعّبة، وغاباتها الكثيفة، إلى القواعد السرّيّة للمجاهدين، وكأنَّها تشرح لك شجرة بعد شجرة، و مغارة بعد أخرى »[45]

«ها هي مدينة تتربص بكلّ فاتح، تلفّ نفسها بملاءتها السوداء و تخفي سرها عن كل سائح »[46]

« ولكن قسنطينة لم تحقد على بايها الذي وهبها الكثير من الوجاهة و الرفاهيّة.

سوت فقط بطيبة أو جنون.. بين القاتل و القتيل صنعت من سيدي محمد الغراب أشهر مزار وليّقسنطينيّ على الاطلاق ، في مدينة يحمل كلّ شارع فيها اسم وليّ.

و خلدت بين واحد و أربعين بايًا حكمها. اسم صالح باي وحده، فكتبت فيه أجمل أشعارها، و غنَّت فجيعة موته في أجمل أغنية رثاء، و ما زالت تلبس حداده حتَّى اليوم مع ملاءات نسائها السوداء.. دون أن تدري هذه هي قسنطينة.. »(47)

«ربَّما كان أول ما لفت نظري ذلك الصباح، ذلك الزيّ الموحد لتلك المدينة التي تستيقظ كما تنام بحزن غامض، ذلك اللون القاتم المتدرّج و المشترك بين الجنسين.

النساء ملفوفات بملاءاتهنَّ السوداء التي لا يبدو منها شيء سوى عيونهنَّ.

و الرجال في بدلاتهم الرماديَّة أو البنيَّة التي لا تختلف عن لون بشرتهم..ولا لون شعرهم. و التي يبدون و كأنَّهم اشتروها جميعًا عند خياط واحد.

و قلما كان يبدو من بين الحشود نقطة ضوء، أو لون زاهٍ لفستانٍ أو بدلةٍ صيفيّة»(48).

« الجميع يعرفون أن خلف شوارعها الواسعة تختبئ الأزقة الضيقة الملتوية، و قصص الحبّ غير الشرعيّة، واللّذّة التي تسرق على عجل خلف باب..وتحت ملاءتها السوداء الوقور، تنام الرغبة المكبوتة من قرون »(49)

الملاءة هي لباس تقليدي يعبر عن أصالة المجتمع في الشرق الجزائري المعروف بذلك الزي وبعراقة تراثه. لأن اللّباس يُعبّر من خلاله عن ثقافة المجتمع وانتمائه.

الملحفة:

لغويا: من المعان ذات الصلة بهذا اللباس ماجاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "لحف" اللِّحاف والمِلْحَفُ والمِلْحفة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دثار البرد و نحوه، و كل شيء تغطَّيت به فقد الْتَحَفَتْ به. واللِّحاف: اسْم ما يُلْتَفُّ به. و روي عن عائشة أنها قالت: كان النبي صلى الله عليه و سلم، لا يصلي في شعرنا و لا في لحفنا، قال أبو عبيد: اللِّحاف كلُّ ما تغطَّيت به. و لَحَفَتْ الرَّجُل أَلْحَفَهُ إِذا فعلت به ذلك يعني إذا غطَّيته ، و قول طرفة: (الرمل) (ش20/3)

ثم رَاحُوا عَبِقَ المِسْكُ بهم، يَلْحَفُونَ الأَرْضَ هُدَّابَ الأُزُرْ

أي يغَطُّونَها ويُلْبِسونها هدّاب أُزُرَهُم إذا جرُّوها في الأرض. قال الأزهري: و يقال لذلك الثوب لِحَافٌ ومِلْحف بمعنى واحد كما يقال إِزَار ومِئْزَر وقِرام و مِقْرَم، قال: وقد يقال مِلْحَفة ومِقْرمة و سواء كان الثوب سِمْطًا أو مُبَطَّنًا، و يقال له لِحاف.

ولحَفَهُ لِحافا: ألبسه إياه. وأَلحفه إياه: جعله له لحافًا وأَلحفه: اشترى له لحافًا، حكاه اللحياني عن الكسائي، وفي التهذيب: ولَحَفْتُ لحافًا. وتَلَحَّفْت لحافًا إذا اتخذته لنفسك، قال: و كذلك التحفت، وأنشد لطَرَفة:
يَلْحفون الأَرض هداب الأُزر

أي يجرّونها على الأَرض، و روي عن الكسائي لحفْته وأَلْحَفْتُهُ بمعنى واحد، وأنشد بيت طرفة أيضًا

وأَلْحَفَ الرّجل ولحَّف إذا جَرَّ إزاره على الأرض خُيَلَاءً و بَطْرًا، وأنشد بيت طرفة أيضًا. والمِلْحفة عند العرب هي المُلاءة السِّمْط، فإذا بُطِّنَت ببطانة أو حُشِيت فهي عند العوام مِلْحَفَة، قال: و العرب لا تعرف ذلك. الجوهري: الملحفة المَلَاحِف. وتَلَحَّفَ بالمِلْحفة واللِّحاف والتحف ولَحَفَ بهما: تغَطَّى بهما، لُغَيَّة، وإنها لَحَسَنَة اللِّحْفَة من الالتحاف. التهذيب: يقال فلان حسَن اللِّحفة وهي الحالة التي تتلحف بها. واللَّحْفُ: تغطِيَتُكَ الشيء باللحاف(50).

أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة "لحف" اللام و الحاء و الفاء أصلٌ يدلُّ على اشتمال وملازَمة. يقال : اِلْتَحَفَ باللِّحَاف يَلْتَحِفُ[51].

أما في معجم أساس البلاغة للزمخشري في مادة "لحف" لَحَفَهُ ثوبًا وألحفه ، والتحف به وتَلَحَّف ، وعليه مِلحفة ولِحاف ومَلاحِف ولُحُفٌ[52].

يدل عند العرب على المُلاءة فإذا بُطن فهو ملحفة عند العوام، و هو ثوب يغطي سائر اللباس تلبسه المرأة، و هو بمثابة الغطاء عند الرجل، و لا يصلي فيه النبي صلى الله عليه و سلم.

سيميائيا: تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد :

« ها هي ذي قسنطينة...و ها هو كل شيء أنت. وها أنت تدخلين إليَّ، من النافذة نفسها التي سبق أن دخلت منها منذ سنوات.مع صوت المآذن نفسه، و صوت الساعة، و خطى النساء الملتحفات بالسواد، و الأغاني القادمة من مذياع لا يتعب**»**[53].

« اللوحة أنثى كذلك ..تحبّ الأضواء وتتحمل لها، تحب أن نداللها و نمسح الغبار عنها، أن نرفعها عن الأرض و نرفع عنها اللحاف الذي نغطِّيها به..تحبُّ أن نعلقها في قاعة لتتقاسمها الأعين حتى ولو لم تكن معجبة بها..
إنها تكره في الواقع أن تعامل بتجاهل لاغير.. **»**[54]

« أفرغ ذاكرة انحازت للّون الأسود مذ انحزت لهذه المدينة الملتحفة –حماقة- بالسواد منذ قرون، و التي تخفي وجهها تناقضا – تحت مثلَّث أبيض للإغراء.

سلاما أيُّها المثلث المستحيل.. سلامًا أيّتها المدينة التي تعيش مغلقة وسط ثالوثها المحرّم الدِّين- الجنس- السياسة**»**[55].

تحظى الملحفة بمكانة كبيرة في الشرق الجزائري حيث تمثل اللباس التقليدي الأصيل الذي تفتخر به الجزائر بما تحمله من البعد الحضاري والثقافي، فهي تتصل بتاريخ الوطن وتراثه وأصالته والتي ينبغي الحفاظ عليها لأنها هي تحدد هويتنا وانتماءنا وتعكس جذورنا.

وخلاصة القول أن السيمياء لها علاقة بالعلوم الأخرى، فهي ترتبط بعلم الدلالة و القاموس المعجمي ولها علاقة دلالية بالسياقات المعجمية، كما تساهم في بلورة مفاهيم ثقافية تظهر في هيئة رموز و أمام هذا التراكم السيميائي يجد الباحث تنوعا في التصور للرموز، تلتبس فيه السيمياء بالنظرية التأويلية، كما أن السيمياء تحافظ على خصوصية النصوص،و نذكر في هذا الصدد أن اللباس يقي الانسان من البرد و الحر ويغذي الروح و الجسد و هوبمثابة الستر للمرأة، و صيانة الأجساد من كل ما يؤذيها و هو يعبر عن حضارة الأمم و ما وصلت إليه في مضمار الصناعة و هو ما حاولنا الكشف عنه دلاليا، و تحليله و تفكيكه سيميائيا.

وبعد فهذه وقفة لشكر المولى، و الاقرار بفضله إذ أعاننا على إخراج هذا البحث في صورته المشرقة و يبقى من جهد المقل فإن لاق قبولا فهذا ما كنا نبغي، وإلا فحسبنا ككل من اجتهد و أخطأ و حسبنا المحاولة و حسن القصد.

هذا و نرجو أن يتحقق النفع من هذا العمل، و تعود فوائده على الدارسين و الباحثين، و عندئذ تتم السعادة، و يتحقق الابتهاج، و على الله قصد السبيل.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1) ديوان امرئ القيس ت ، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ص:353.
2) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ت، محمود حجازي، مر، عبد الهادي التازي، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002،1423م، ص:5.
3) عبد الجليل مرتاض، في عالم النص و القراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر،2007،ص:5.
4) جاك فونتاني، سيمياء المرئي تر، علي أسعد، دار الحوار،ط1، سورية، اللاذقية، 2003، ص:185.
5) نصر الدين بن غنيسة، فصول في السيميائيات، عالم الكتب الحديث، ط1، الجزائر، بسكرة، 2011،1432، ص: 1.
6) سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، ط2، المملكة المغربية، 2003، ص:6.
7) أمبرتو إيكو، السيميائية و فلسفة اللغة، تر، أحمد الصمعي، المنظمة العالمية للترجمة، ط1، بيروت، 2005، ص: 313.
8) طائع الحداوي ، سيميائيات التأويل الإنتاج و منطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، المغرب،2006، ص:320.
9) ابن منظور (محمد ابن مكرم) لسان العرب، مج4، ت، عامر أحمد حيدر، عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مادة "برنس".
10) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص:61،60.
11) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط16، 2001، ص:312.
12) لسان العرب، مج:1، مادة " ثوب".
13) ابن فارس (أبي الحسين) مقاييس اللغة، مج:1، ت، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مادة "ثوب".
14) الزمخشري (جار الله)، أساس البلاغة، ت:محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مادة "ثوب".
15) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص: 255.
16) المصدر نفسه، ص: 328،329.
17) رجب الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، 105،104.
18) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص:52.
19) المصدر نفسه، ص:255.
20) أساس البلاغة ، مج:1، مادة "حزم".
21) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص: 360.
22) المرجع نفسه، ص،195.
23) لسان العرب، مج:3، مادة "سور".
24) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص: 117،67،66،53.
25) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص 254،253.
26) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص:16
27) المرجع نفسه، ص: 172.
28) لسان العرب، مج:3، مادة "عجر".
29) مقاييس اللغة، مج:4، مادة "عجر".
30) أساس البلاغة، مج:1 مادة "عجر".
31) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص: 321.
32) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص:316،315.
33) لسان العرب، مج:4، مادة " قمص".
34) مقاييس اللغة، مج: 5، مادة " قمص".

35) أساس البلاغة، مج:2، مادة "قمص".
36) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص: 404،405.
37) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص: 255.
38) المرجع نفسه، ص:321.
39) لسان العرب، مج: 5، مادة "عطف".
40) أساس البلاغة، مج: 1، مادة "عطف" .
41) أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد ، ص112
42) المرجع نفسه، ص 193 .
43) المرجع نفسه ، ص194.
44) رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ص: 476،477.
45) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص:25.
46) المصدر نفسه، ص:292.
47) المصدر نفسه، ص: 297.
48) المصدر نفسه، ص:312.
49) المصدر نفسه، ص:315.
50) لسان العرب، م5، مادة "لحف".
51) مقاييس اللغة، م5، مادة "لحف".
52) أساس البلاغة، م2، مادة "لحف".
53) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص:11.
54) المرجع نفسه، ص: 74،75.
55) المرجع نفسه، ص:33.